وصف الطبيعة في شعر الخنساء

The Description of Nature in the Poetry of Al-Khansa

تفصيل المؤلفين

فرحت شامين : باحثة ماجستير الفلسفة في قسم اللغة العربيةوآدابهابجامعة سرجودها،باكستان

الدكتور محمد ناصر مصفطى : الأستاذ المساعد قسم اللغة العربيةوآدابهابجامعة سرجودها،باكستان

ملخص البحث

يتناول هذا البحث وصف الطبيعة في شعر الخنساء، ويهدف إلى الكشف عن الأبعاد الفنية والدلالية والنفسية للصور الطبيعية في شعرها، وبيان أثر البيئة الصحراوية في تشكيل تجربتها الشعرية. وقد ركزت الدراسة على تحليل أبرز مظاهر الطبيعة التي وظفتها الخنساء، مثل: الليل والنجوم، والجبال والنار، والشمس والدهر، والرياح والمطر والبكاء، مع بيان ما تحمله هذه العناصر من دلالاتٍ رمزية تعكس مشاعر الحزن والحنين والوفاء التي امتازت بها مراثيها. واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء النصوص الشعرية وتحليلها في ضوء السياق الأدبي والنقدي، مع الإفادة من المصادر الأدبية القديمة والدراسات الحديثة. وقد توصلت الدراسة إلى أن الطبيعة في شعر الخنساء لم تكن مجرد إطارٍ وصفي، بل تحولت إلى وسيلةٍ فنية للتعبير عن تجربتها الوجدانية، وأسهمت البيئة الصحراوية في تشكيل صورها الشعرية وإثراء دلالاتها، مما أكسب شعرها خصوصيةً فنية ومكانةً متميزةً في الأدب العربي. الكلمات المفتاحية: الخنساء، وصف الطبيعة، الصورة الشعرية، الرثاء، البيئة الصحراوية، الشعر العربي.

الجدول الزمنى للتقديم

تاريخ الاستلام: ١٠ يوليو ٢٠٢٦

تاريخ المراجعة: ١٦ يوليو ٢٠٢٦

تاريخ القبول: ٢٢ يوليو ٢٠٢٦

تاريخ النشر: ٢٦ يوليو ٢٠٢٦

بيان النشر والاخلاقيات

نشرته مجلة (البحث) قسم اللغة العربية وآدابها جامعة سرجودها، سرجودها، بنجاب، باكستان

هذه المقالة مفتوحة المصدرويتم توزيعها بموجب شروط رخصة المشاع الإبداعي المنسوبة 4.0 الدولية المجلد5،العدد-1 ـ 2026

ISSN Online: 3007-4673

ISSN Print: 3007-4665

al-bahath.com

وصف الطبيعة في شعر الخنساء

The Description of Nature in the Poetry of Al-Khansa

فرحت شاهين :باحثة ماجستير الفلسفة فى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة سرجودها
د/محمد ناصر مصطفى: الأستاذ المساعد قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة سرجودها
nasir.mustafa@uos.edu.pk

Abstract

This study examines the representation of nature in the poetry of al-Khansāʾ, highlighting its artistic, psychological, and symbolic dimensions. It explores how natural elements such as the night and stars, mountains and fire, the sun and the passage of time, and wind, rain, and tears are employed to express the poet's profound emotions, particularly grief, longing, and loyalty in her elegies.

Using a descriptive and analytical approach, the study analyzes selected poetic texts to demonstrate that nature in al-Khansāʾ's poetry is not merely a decorative background, but an expressive medium closely connected to her inner experience. The study further shows that the Arabian desert environment played a significant role in shaping her poetic imagery and enriching its artistic and emotional significance. It concludes that the integration of natural imagery with human emotion is one of the distinctive features that has secured al-Khansāʾ a prominent place in classical Arabic literature.

Keywords: Al-Khansāʾ, Nature, Poetic Imagery, Elegy, Desert Environment, Arabic Poetry.

يتناول هذا البحث وصف الطبيعة في شعر الخنساء، ويهدف إلى الكشف عن الأبعاد الفنية والدلالية والنفسية للصور الطبيعية في شعرها، وبيان أثر البيئة الصحراوية في تشكيل تجربتها الشعرية. وقد ركزت الدراسة على تحليل أبرز مظاهر الطبيعة التي وظفتها الخنساء، مثل :الليل والنجوم، والجبال والنار، والشمس والدهر، والرياح والمطر والبكاء، مع بيان ما تحمله هذه العناصر من دلالاتٍ رمزية تعكس مشاعر الحزن والحنين والوفاء التي امتازت بها مراثيها.

واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، من خلال استقراء النصوص الشعرية وتحليلها في ضوء السياق الأدبي والنقدي، مع الإفادة من المصادر الأدبية القديمة والدراسات الحديثة. وقد توصلت الدراسة إلى أن الطبيعة في شعر الخنساء لم تكن مجرد إطارٍ وصفي، بل تحولت إلى وسيلةٍ فنية للتعبير عن تجربتها الوجدانية، وأسهمت البيئة الصحراوية في تشكيل صورها الشعرية وإثراء دلالاتها، مما أكسب شعرها خصوصيةً فنية ومكانةً متميزةً في الأدب العربي .الكلمات المفتاحية :الخنساء، وصف الطبيعة، الصورة الشعرية، الرثاء، البيئة الصحراوية، الشعر العربي.

الكلمات المفتاحية: وصف الطبيعة،الشعر العربى،شعر الخنساء،العصرالجاهلى۔

يعد وصف الطبيعة من أبرز الموضوعات التي شغلت الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، إذ وجد الشعراء في مظاهر الكون المختلفة وسيلةً للتعبير عن مشاعرهم وتجاربهم الإنسانية. وقد برزت الخنساء في هذا المجال بأسلوبٍ متميّزٍ، فلم يكن توظيفها لعناصر الطبيعة مجرد تصويرٍ خارجي للمشاهد الكونية، بل جاء معبّرًا عن حالتها النفسية، ولا سيما في مراثيها التي امتزج فيها الحزن بالطبيعة امتزاجًا وثيقًا.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا البحث إلى الوقوف على أبرز صور الطبيعة في شعر الخنساء، وتحليل أبعادها الفنية والدلالية، وبيان أثر البيئة الصحراوية في تشكيل صورها الشعرية، من خلال دراسة نماذج مختارة من شعرها، للكشف عن مدى توظيفها للعناصر الطبيعية في تجسيد تجربتها الشعورية وإبراز قيمتها الفنية في إطار الشعر العربي القديم.

الخنساء، واسمها تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السُّلمية، من أشهر شاعرات العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، وقد غلبت كنيتها على اسمها حتى أصبحت عَلَمًا عليها. نشأت في بيتٍ عريقٍ في الشرف والسيادة، فجمعت بين الفصاحة، وقوة الشخصية، وسلامة الذوق الأدبي، مما هيأ لها مكانةً رفيعةً في تاريخ الشعر العربي [i]

اشتهرت الخنساء بفنّ الرثاء، ولا سيما في رثاء أخويها صخر ومعاوية، حتى عدَّها النقاد أشعر النساء، وأثنى على شاعريتها كبار أدباء عصرها، لما امتاز به شعرها من صدق العاطفة، وقوة التصوير، وجزالة الألفاظ

أدركت الخنساء الإسلام، فأسلمت وحسن إسلامها، وكان لذلك أثرٌ واضحٌ في شخصيتها وشعرها، إذ انتقلت من مظاهر الجزع في رثاء الجاهلية إلى معاني الصبر والرضا بقضاء الله تعالى، وهو ما تجلّى في موقفها عند استشهاد أبنائها الأربعة في معركة القادسية [ii]وقد تركت الخنساء ديوانًا يُعدُّ من أهم مصادر الشعر العربي، ويمثل نموذجًا فريدًا في صدق التجربة الشعرية وقوة التعبير، الأمر الذي جعل شعرها محلَّ اهتمام الدارسين قديمًا وحديثًا، ولا يقتصر تميزه على الرثاء فحسب، بل يشتمل أيضًا على صورٍ فنيةٍ متنوعة، ولا سيما ما يتعلق بوصف عناصر الطبيعة، التي وظفتها الشاعرة للتعبير عن مشاعرها وأحاسيسها، ومن أبرزها الليل والنجوم، وهو ما ستتناوله الدراسة في المبحث الآتي بعنوان :صورة الليل والنجوم في شعر الخنساء.

صورة الليل والنجوم في شعر الخنساء

تُعَدُّ صورةُ الليل والنجوم من أكثر الصور الطبيعية حضورًا في شعر الخنساء، وذلك بسبب الصلة الوثيقة بين التجربة النفسية للشاعرة وبين أجواء الليل الممتدة في الصحراء العربية. فالليل في البيئة الجاهلية لم يكن مجرد زمنٍ للسكون، بل كان فضاءً تتكثف فيه مشاعر الوحدة والحزن والتأمل، ولذلك وجدَت الخنساء فيه مرآةً صادقةً لمعاناتها الداخلية بعد فقد أخويها، ولا سيما صخر.

وقد استطاعت الشاعرة أن تحوّل عناصر الطبيعة الكونية ـ كالليل والنجوم ـ إلى رموزٍ نفسية نابضة بالحزن والقلق، بحيث أصبحت الطبيعة عندها شريكًا وجدانيًّا في التجربة الشعرية، لا مجرد إطارٍ خارجي للقصيدة.

ومن أبرز النصوص التي تتجلى فيها هذه الصورة قولها:

يذكِّرني طلوعُ الشمسِ صخرًا

وأذكرُه لكلِّ غروبِ شمسِ

ولولا كثرةُ الباكينَ حولي

على إخوانِهم لقتلتُ نفسي [iii]

يُلاحَظ منذ البيت الأول أنَّ الشاعرة تربط بين حركة الكون وحركة الشعور النفسي؛ فطلوع الشمس وغروبها ـ وهما من أبرز الظواهر الطبيعية المتكررة ـ أصبحا في وجدانها سببًا دائمًا لاستحضار صورة أخيها الراحل. وهذه العلاقة

بين الطبيعة والذاكرة تكشف عن عمق الحزن الذي استولى على نفس الخنساء؛ لأنَّ الزمن كله تحوَّل عندها إلى سلسلةٍ متواصلة من الذكريات المؤلمة.

ويحمل قولها: يذكِّرني طلوع الشمس صخرًا دلالةً فنية دقيقة؛ إذ إنَّ طلوع الشمس عادةً يرمز إلى الحياة والتجدد والأمل، غير أنَّ الخنساء قلبت هذه الدلالة إلى معنى الحزن والفقد، فكأنَّ النور نفسه أصبح باعثًا للألم. وفي هذا التحويل الدلالي تظهر قدرة الشاعرة على توظيف الطبيعة توظيفًا نفسيًّا عميقًا، حيث لم تعد الظواهر الكونية محتفظةً بمعانيها التقليدية، بل اكتسبت معاني جديدة نابعة من التجربة الشعورية.

كما أنَّ في مقابلة طلوع الشمس بغروب الشمس إشارةً إلى شمول الحزن لجميع أوقات اليوم؛ فالشاعرة لا تجد مهربًا من الذكرى لا في بداية النهار ولا في نهايته. وقد أكسب هذا التكرار الزمني النصَّ إيقاعًا حزينًا يوحي باستمرار المعاناة وعدم انقطاعها.

أمَّا البيت الثاني، فيكشف عن ذروة الانكسار النفسي عند الشاعرة، إذ تقول:

ولولا كثرةُ الباكينَ حولي

على إخوانِهم لقتلتُ نفسي

وفي هذا التعبير مبالغةٌ عاطفية تُظهر شدة تعلقها بأخيها، حتى كأنَّ الحياة بعده فقدت معناها. غير أنَّها تجد نوعًا من التخفيف حين ترى الآخرين يشاركونها تجربة الفقد والبكاء، وكأنَّ الحزن الإنساني المشترك يخفف شيئًا من وطأة المصيبة.

وقد أشار شوقي ضيف إلى هذه السمة في شعر الخنساء، فقال:

كانت الخنساء تستمدُّ صورها من البيئة الصحراوية، غير أنَّها كانت تصبغ هذه الصور بصبغةٍ نفسية حزينة تجعل الطبيعة متفاعلةً مع آلامها [iv]

ومن الصور الطبيعية المرتبطة بالليل أيضًا قولها:

يؤرِّقني التذكُّرُ حين أمسي

فأصبحُ قد بُلِيتُ بفرطِ نُكسِ[v]

تعتمد الشاعرة هنا على صورة المساء والليل لتصوير حالة الأرق والسهر التي تعيشها بسبب الحزن. فالفعل يؤرِّقني يحمل دلالةً نفسية قوية؛ إذ يدل على القلق المستمر وفقدان الراحة. وقد ارتبط المساء في وجدانها بتجدد الذكريات، لأنَّ الليل بطبيعته زمنُ سكونٍ وتأمل، وفيه تشتدُّ وطأة الأحزان على النفس.

ومن خلال هذه النماذج يتضح أنَّ الليل والنجوم والشمس ليست عناصر طبيعية جامدة في شعر الخنساء، بل هي رموزٌ نفسية تعبِّر عن دوام الحزن وعمق الفقد. كما تكشف هذه الصور عن براعة الشاعرة في الربط بين حركة الكون وحركة الشعور الإنساني، مما منح شعرها بعدًا وجدانيًّا وفنيًّا بالغ التأثير.

صورة الجبال والنار في شعر الخنساء

تُعَدُّ صورةُ الجبال والنار من أبرز الصور الطبيعية التي وظَّفتها الخنساء في شعرها، ولا سيما في مراثيها لأخيها صخر. وترجع أهمية هذه الصورة إلى ارتباطها الوثيق بالبيئة الصحراوية العربية؛ فالجبال في الذهنية العربية القديمة كانت رمزًا للثبات والعظمة والعلو، أمَّا النار فكانت تمثل الهداية والكرم والقوة والحضور الواضح في الصحراء المظلمة. ومن هنا استطاعت الخنساء أن تجعل من هذه العناصر الطبيعية أدواتٍ فنية تُعبِّر بها عن مكانة أخيها وصفاته البطولية.

ومن أشهر الأبيات التي تتجلَّى فيها هذه الصورة قولها:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به

كأنَّه عَلَمٌ في رأسهِ نارُ[vi]

يُعَدُّ هذا البيت من أبلغ أبيات الرثاء في الشعر العربي؛ لما يشتمل عليه من صورة فنية مركبة تجمع بين الطبيعة والرمز النفسي والاجتماعي. فقد شبَّهت الخنساء أخاها صخرًا بالعَلَم الذي توقد النار فوقه ليهتدي به الناس في ظلام الصحراء.

والعَلَم في اللغة هو الجبل المرتفع أو المكان البارز الذي يُستدلُّ به في الطريق، وكانت العرب تشعل النار فوق المرتفعات لتكون دليلًا للمسافرين والتائهين ليلًا. ومن هنا جاءت الصورة متجذرةً في البيئة البدوية، ومعبِّرة عن التجربة الحياتية للعرب.

ويكشف قولها: تأتمُّ الهداة به عن دلالةٍ اجتماعية وأخلاقية عميقة؛ إذ لم تجعل صخرًا مجرد رجلٍ شجاع، بل جعلته قائدًا وقدوةً تهتدي به الناس في أمور حياتها، كما يهتدي المسافر بالنار المضيئة فوق الجبل. وفي هذا التصوير انتقالٌ من المعنى الحسي إلى المعنى المعنوي، حيث أصبحت الطبيعة وسيلةً لتجسيد المكانة الإنسانية.

وقد جاءت أداة التشبيه كأنَّ لتؤكد قوة المشابهة بين المشبَّه والمشبَّه به، بينما أسهم التنكير في كلمة نار في تعظيم الصورة وتهويلها، فكأنها نار عظيمة ظاهرة للناس جميعًا.

ويرى عبد القاهر الجرجاني أنَّ جمال الصورة البلاغية يكمن في قدرتها على نقل المعنى من التجريد إلى المحسوس، إذ يقول في دلائل الإعجاز:

إنَّ التشبيه يُريك المعانيَ المجهولةَ في صورة الأشياء المعروفة [vii]

وهذا ما فعلته الخنساء تمامًا؛ إذ جعلت الصفات المعنوية لصخر ـ كالقيادة والشرف والكرم ـ صورةً محسوسة تتمثل في جبلٍ تعلوه نارٌ يهتدي بها الناس.

كما تكشف الصورة عن البعد النفسي في شعر الخنساء؛ فهي لا تصف أخاها وصفًا عابرًا، بل تحاول أن تُخلِّد حضوره في الذاكرة الجماعية من خلال ربطه بعناصر طبيعية عظيمة وثابتة. وكأنَّها تُقاوم موته بتحويله إلى رمزٍ خالدٍ لا يزول.

ومن الصور المرتبطة بالجبال والعلو قولها أيضًا:

طويلُ النجادِ رفيعُ العمادِ

سادَ عشيرتَه أمردا[viii]

يحمل هذا البيت صورةً طبيعية غير مباشرة، إذ إنَّ وصف رفيع العماد يوحي بالعلو والشموخ والثبات، وهي صفات ترتبط في المخيال العربي بالجبال والمرتفعات. وقد استخدمت الخنساء هذا التعبير لتصوير رفعة أخيها ومكانته السامية بين قومه.

ويشير طويل النجاد إلى طول القامة وما يرتبط بها من الهيبة والقوة، أمَّا رفيع العماد فيوحي بالمجد والشرف، لأنَّ العرب كانت تجعل ارتفاع العماد دليلًا على عظمة البيت وكرم صاحبه.

وفي هذا التصوير مزجٌ بين الطبيعة والبيئة الاجتماعية؛ إذ تتحول صورة البيت المرتفع إلى رمزٍ للمكانة القبلية والهيبة المعنوية. كما أنَّ الشاعرة اعتمدت على ألفاظٍ ذات جرس قوي مثل: طويل، رفيع، ساد، وهي ألفاظ تمنح البيت إيقاعًا يتناسب مع معاني القوة والعظمة.

وقد أشار شوقي ضيف إلى أنَّ الخنساء كانت تميل إلى الصور الواضحة المستمدة من البيئة الصحراوية، فتجعل من الجبل والنار والفضاء الصحراوي رموزًا للعظمة والثبات [ix]

ومن خلال هذه النصوص يظهر أنَّ صورة الجبل والنار عند الخنساء ليست مجرد زخرفة بيانية، بل هي بناءٌ رمزي يحمل دلالاتٍ نفسية واجتماعية وأخلاقية. فالطبيعة في شعرها تتحول إلى لغةٍ تعبّر بها عن البطولة والفقد والوفاء، كما تكشف عن عمق ارتباط الشاعرة ببيئتها الصحراوية التي استمدَّت منها صورها وأخيلتها الفنية.

وتتجلى براعة الخنساء في قدرتها على تحويل المشاهد الطبيعية البسيطة إلى صورٍ شعرية ذات طاقة إيحائية كبيرة، بحيث تبقى مؤثرةً في نفس المتلقي، وهو ما جعل شعرها يحتل مكانةً رفيعةً في الأدب العربي القديم.

صورة الشمس والدهر وتعاقب الزمن في شعر الخنساء

يحتلُّ الزمنُ بمظاهره الطبيعية المختلفة مكانةً بارزةً في شعر الخنساء، فقد كان لتعاقب الليل والنهار، وطلوع الشمس وغروبها، وحركة الدهر والأيام أثرٌ عميق في تشكيل تجربتها الشعرية، ولا سيما في مراثيها التي امتلأت بالحزن والحنين والأسى. ولم يكن الزمن في شعرها عنصرًا حياديًّا، بل تحوَّل إلى قوةٍ فاعلة تشاركها آلامها، وتُجدِّد في نفسها ذكرى الفقد كلما تجددت مظاهر الطبيعة.

ومن أبرز النصوص التي يتجلَّى فيها هذا المعنى قولها:

يذكِّرني طلوعُ الشمسِ صخرًا

وأذكرُه لكلِّ غروبِ شمسِ [x]

يُعدُّ هذا البيت من أصدق ما قيل في التعبير عن استمرار الحزن وتجدد الذكرى؛ لأنَّ الشاعرة ربطت بين حركة الكون الثابتة وبين حركة الألم في داخلها. فطلوع الشمس وغروبها ظاهرتان يوميتان متكررتان، غير أنَّهما عند الخنساء لم تعودا مجرد علامتين زمنيتين، بل أصبحتا باعثتين للحزن ومثيرتين للذكريات.

وتكشف هذه الصورة عن عمق التعلُّق النفسي بأخيها صخر؛ إذ إنَّ ذكره لا يفارقها في أول النهار ولا في آخره. وكأنَّ الزمن كلَّه قد أصبح دائرةً مغلقةً من الذكرى والأسى. وهذه الدلالة تمنح النص بُعدًا نفسيًّا بالغ التأثير، لأنَّ الحزن هنا لا يرتبط بوقتٍ معين، بل يمتد مع امتداد الزمن نفسه.

كما أنَّ في الجمع بين الطلوع والغروب طباقًا بديعًا يُسهم في إبراز شمول الحزن واستمراره، فالطباق هنا ليس مجرد محسِّنٍ لفظي، بل وسيلةٌ فنية تُعمِّق المعنى وتُظهر التضاد بين حركة الطبيعة المنتظمة واضطراب النفس الحزينة.

وقد أشار ابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه إلى أنَّ من جمال الشعر أن يُقرَن المعنى بما يشهد له من أحوال الطبيعة والزمان [xi]، وهو ما يتجلَّى بوضوح في شعر الخنساء؛ إذ جعلت من تعاقب الزمن شاهدًا دائمًا على حزنها.

ومن النصوص التي تتصل بصورة الزمن والدهر قولها:

وما يبكون مثلَ أخي ولكنْ

أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[xii]

تدلُّ هذه الأبيات على صراعٍ نفسي بين الحزن ومحاولة التحمُّل، فالدهر عند الخنساء ليس مجرد مرورٍ للأيام، بل قوَّةٌ قاسية انتزعت منها أعزَّ الناس إليها. ولهذا نجدها تلجأ إلى التأسِّي لتخفيف ألم المصيبة، غير أنَّها تعترف ضمنًا بأنَّ أحدًا لا يُشبه أخاها.

وفي هذا المعنى يتداخل الشعور الإنساني مع حركة الزمن؛ إذ يبدو الدهر وكأنَّه خصمٌ يسرق الأحبَّة ويترك الإنسان أسير الذكريات. وقد شاع هذا التصور في الشعر الجاهلي، غير أنَّ الخنساء عبَّرت عنه بصدقٍ عاطفي جعل شعرها أكثر تأثيرًا من كثيرٍ من شعراء عصرها.

ومن الصور الزمنية ذات البعد الطبيعي قولها أيضًا:

أَعَيْنيَّ جودا ولا تَجمُدا

ألا تبكيانِ لصخرِ الندى[xiii]

ترتبط هذه الصورة بالطبيعة من خلال حركة الدموع المتدفقة التي تُشبه انهمار الماء، وهو تصويرٌ يوحي باستمرار الحزن وعدم انقطاعه. كما أنَّ الأمر بالفعل جودا يحمل معنى الانسكاب والغزارة، فكأنَّ الدموع أصبحت مطرًا دائمًا يتوافق مع فيض المشاعر الداخلية.

وقد اعتمدت الخنساء هنا على أسلوب النداء والخطاب المباشر للعينين، مما يُضفي على النص حرارةً عاطفية ويجعل القارئ قريبًا من التجربة النفسية للشاعرة. كما أنَّ تكرار الأصوات الممدودة في جودا وتجمدا يمنح البيت نغمةً حزينة تنسجم مع جو الرثاء.

ويرى طه حسين أنَّ الخنساء كانت تُحسن تحويل العاطفة الفردية إلى تجربة إنسانية عامة؛ لأنَّها تستمدُّ صورها من الطبيعة والحياة اليومية التي يشعر بها الجميع [xiv]

ومن خلال هذه النماذج يتبين أنَّ الشمس والدهر والزمن في شعر الخنساء ليست عناصر طبيعية جامدة، وإنما هي رموزٌ فنية ونفسية تعبِّر عن دوام الحزن واستمرار المعاناة. وقد استطاعت الشاعرة أن تجعل من حركة الكون لغةً تعبِّر بها عن آلامها الداخلية، فامتزج الزمن بالطبيعة، وامتزجت الطبيعة بالحزن، حتى أصبحت القصيدة مرآةً صادقةً للتجربة الإنسانية العميقة.

كما تكشف هذه الصور عن قدرة الخنساء على استثمار الظواهر الكونية في بناء صورٍ شعرية ذات أبعادٍ وجدانية وفنية، وهو ما منح شعرها خلودًا وتأثيرًا في الأدب العربي عبر العصور.

صورة الرياح والمطر والبكاء في شعر الخنساء

تُعَدُّ الرياحُ والمطر من أبرز الظواهر الطبيعية التي حضرت في شعر الخنساء، وقد وظَّفتهما توظيفًا نفسيًّا وفنيًّا عميقًا؛ إذ لم تكن الطبيعة عندها مجرد مشاهد خارجية، بل كانت انعكاسًا مباشرًا لما يضطرب في داخلها من حزنٍ ولوعة. فالرياح بما تحمله من اضطرابٍ وحركة، والمطر بما يوحي به من انهمارٍ واستمرار، تحوَّلا في شعرها إلى رمزين للبكاء المتجدد والأسى الدائم.

وقد ارتبطت هذه الصور بطبيعة البيئة الصحراوية التي عاشت فيها الخنساء؛ فالإنسان الجاهلي كان شديد التأثر بمظاهر الطبيعة، يراقب تغيراتها ويُسقط عليها مشاعره وأحاسيسه. ولهذا جاءت صور الرياح والمطر في شعر الخنساء ممتزجةً بالتجربة النفسية امتزاجًا عميقًا.

ومن النصوص التي تتجلَّى فيها هذه الصورة قولها:

قذىً بعينِكِ أم بالعينِ عُوَّارُ

أم ذَرَّفتْ إذ خلتْ من أهلها الدارُ[xv]

تفتتح الخنساء هذا النص باستفهامٍ يحمل في داخله حيرةً وألمًا نفسيًّا عميقًا؛ فهي تتساءل عن سبب هذا الدمع المتدفق من عينها: أهو مرضٌ أصابهما، أم أنَّ الحزن هو الذي فجَّر البكاء؟ غير أنَّها سرعان ما تكشف أنَّ السبب الحقيقي هو خلوُّ الدار من أهلها، أي غياب الأحبة ورحيلهم.

وفي هذا البيت تتداخل الطبيعة بالحالة النفسية؛ إذ تبدو الدموع وكأنَّها ماءٌ منسكب لا يتوقف، مما يمنح الصورة إيحاءً يشبه المطر المتواصل. كما أنَّ لفظة ذرفت تحمل دلالة الحركة والانهمار، وهي من الألفاظ التي تُستخدم كثيرًا في وصف الماء والمطر، الأمر الذي يُضفي على الصورة طابعًا طبيعيًّا حيًّا.

وتكشف هذه الصورة عن أنَّ البكاء عند الخنساء ليس فعلًا عابرًا، بل حالة وجودية مرتبطة بالذاكرة والفقد. فالدار الخالية ـ وهي صورة مكانية طبيعية ـ تحولت إلى رمزٍ للوحدة والحرمان.

ومن الأبيات التي يبرز فيها توظيف الطبيعة في التعبير عن الحزن قولها:

كأنَّ عيني لذكراه إذا خطرتْ

فيضٌ يسيلُ على الخدَّينِ مدرارُ[xvi]

تقوم الصورة هنا على تشبيه الدموع بالفيض المتدفق، وهو من الصور الطبيعية ذات الإيحاء القوي. فالفيض يدلُّ على الكثرة والغزارة وعدم القدرة على التوقف، وكأنَّ الحزن قد تجاوز حدود الاحتمال حتى أصبح أشبه بالسيل الجارف.

وقد استخدمت الشاعرة كلمة مدرار التي تُستعمل غالبًا في وصف المطر الغزير، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾[xvii] الأمر الذي يعمِّق الصلة بين الدموع والطبيعة الممطرة.

وهذه الصورة تكشف عن مهارة الخنساء في تحويل الظاهرة الطبيعية إلى أداةٍ تعبيرية دقيقة؛ فالدموع لم تعد مجرد علامة على الحزن، بل أصبحت عنصرًا طبيعيًّا متحركًا يعكس عنف المشاعر واضطراب النفس.

وقد رأى شوقي ضيف أنَّ الخنساء كانت تميل إلى الصور الحسية الواضحة التي تستمدها من الطبيعة الصحراوية، لكنها تُحمِّلها شحنةً نفسية قوية تجعلها أقرب إلى التجربة الإنسانية [xviii]

ومن الصور التي يتجلَّى فيها حضور الرياح قولها:

تَهُبُّ الصَّبا فأذكرُ عهدَ صخرٍ

وأذكرُه لكلِّ هبوبِ ريحِ [xix]

في هذا البيت ترتبط الرياح بالذاكرة والحنين؛ فهبوب الريح يُعيد إلى الشاعرة ذكريات أخيها الراحل، وكأنَّ الطبيعة أصبحت وسيطًا بين الماضي والحاضر. والريح هنا ليست مجرد ظاهرة مناخية، بل رسالة وجدانية توقظ المشاعر الكامنة في النفس.

كما أنَّ اختيار الصَّبا ـ وهي الريح اللطيفة المعروفة عند العرب ـ يحمل دلالةً خاصة؛ إذ غالبًا ما ارتبطت هذه الريح في الشعر العربي بالحنين والذكريات والرسائل العاطفية. غير أنَّ الخنساء حمَّلتها معنى الحزن بدلًا من الفرح، مما يدلُّ على هيمنة تجربة الفقد على وجدانها.

ويكشف التكرار في قولها: وأذكره عن استحكام الذكرى في نفسها، حتى أصبحت كل حركة في الطبيعة تُعيد إليها صورة أخيها. وهذا من أصدق مظاهر التفاعل بين الإنسان والطبيعة في الشعر العربي.

وقد أشار مصطفى صادق الرافعي إلى هذه السمة بقوله:

كانت الخنساء تُذيب الطبيعة في شعورها، فلا تعود الأشياء أشياءَ جامدة، بل تصبح أحزانًا ناطقة[xx]

ومن خلال هذه النماذج يتبيَّن أنَّ الرياح والمطر والبكاء تشكِّل في شعر الخنساء عالمًا شعوريًّا متكاملًا، حيث تتحول الظواهر الطبيعية إلى لغةٍ تعبِّر عن الحزن والحنين واستمرار الذكرى. كما تكشف هذه الصور عن قدرة الشاعرة على الربط بين الطبيعة والانفعال النفسي، بحيث تبدو القصيدة وكأنَّها امتدادٌ حيٌّ لحركة الكون واضطرابه.

ولذلك فإنَّ وصف الطبيعة عند الخنساء لم يكن وصفًا سطحيًّا للمشاهد الكونية، بل كان تعبيرًا نفسيًّا عميقًا يُبرز صدق التجربة وقوة العاطفة، وهو ما منح شعرها خلودًا ومكانةً رفيعةً في الأدب العربي.

أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الصورة الطبيعية في شعر الخنساء

لا يمكن دراسةُ وصف الطبيعة في شعر الخنساء بمعزلٍ عن البيئة الصحراوية التي نشأت فيها؛ لأنَّ الشاعر الجاهلي كان ابنَ بيئتِه، يستمدُّ منها ألفاظه وصوره وأخيلته ورؤيته للحياة. وقد كانت الصحراء بما تشتمل عليه من جبالٍ ووديان ورياحٍ ونجومٍ وقيظٍ ووحشةٍ عنصرًا أساسيًّا في تشكيل الحسِّ الشعري عند الخنساء، حتى غدت الطبيعة الصحراوية جزءًا من تجربتها النفسية والفنية.

وقد انعكس هذا التأثير بوضوحٍ في مراثيها، إذ نجد أنَّ أكثر صورها الفنية مستمدة من البيئة البدوية المحيطة بها، فهي تُشبِّه أخاها بالجبل، وتربط حزنها بالليل والنجوم والرياح، وتستحضر حركة الشمس والدهر للتعبير عن دوام

الألم. وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الطبيعة الصحراوية لم تكن مجرد خلفية مكانية لشعرها، بل كانت عنصرًا بنائيًّا في تشكيل الصورة الشعرية.

ومن أبرز النصوص التي يظهر فيها أثر البيئة الصحراوية قولها:

وإنَّ صخرًا لوالينا وسيِّدُنا

وإنَّ صخرًا إذا نشتو لنحَّارُ

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به

كأنَّه عَلَمٌ في رأسهِ نارُ[xxi]

تُجسِّد هذه الأبيات صورةً صحراوية خالصة؛ فالعَلَم الذي توقد فوقه النار صورة مألوفة في حياة العرب البدو، إذ كانوا يعتمدون على النار في الاهتداء أثناء التنقل في الصحراء ليلًا. ومن هنا استمدَّت الخنساء صورتها الفنية من واقعها البيئي، لكنها لم تكتفِ بالنقل الحسي، بل حمَّلت الصورة أبعادًا معنوية وإنسانية.

فصخر في هذه الأبيات ليس مجرد رجل كريم أو شجاع، بل هو رمزٌ للهداية والأمان والثبات، كما أنَّ الجبل المرتفع والنار المضيئة يوحيان بالقوة والوضوح والهيبة. وهذا التوظيف يدلُّ على قدرة الخنساء على تحويل مظاهر البيئة الصحراوية إلى رموزٍ شعرية ذات دلالات نفسية واجتماعية.

كما أنَّ قولها: إذا نشتو لنحَّارُ يعكس جانبًا من الحياة البدوية القائمة على الكرم وإغاثة الضيف في أوقات البرد والجوع، وهو ما يُظهر الصلة الوثيقة بين الصورة الشعرية والواقع الصحراوي.

وقد أشار شوقي ضيف إلى هذه السمة بقوله:

كانت البيئة البدوية تمدُّ الخنساء بصورها الفنية، فجاء شعرها ممتلئًا بمظاهر الصحراء وما يرتبط بها من قيم الشجاعة والكرم والصبر [xxii]

ومن النصوص التي تتجلى فيها ملامح البيئة الصحراوية قولها:

طويلُ النجادِ رفيعُ العمادِ

كثيرُ الرمادِ إذا ما شتا[xxiii]

يعتمد هذا البيت على صورٍ مستمدة من الحياة البدوية العربية؛ فطويل النجاد كناية عن طول القامة والقوة، وهي صفات كانت العرب تعتزُّ بها. أمَّا رفيع العماد فيوحي بارتفاع البيت وعظمته، وهو رمزٌ للمكانة الاجتماعية والكرم. بينما يدلُّ كثير الرماد على كثرة إيقاد النار لطهي الطعام للضيوف، وهو من أشهر رموز الكرم في البيئة الصحراوية.

وتكشف هذه الصورة عن امتزاج الطبيعة بالقيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي؛ فالنار هنا ليست مجرد عنصر طبيعي، بل علامة على الجود والسخاء. كما أنَّ الشتاء الوارد في قولها إذا ما شتا يضفي على الصورة بعدًا إنسانيًّا، لأنَّ الحاجة إلى الطعام والدفء تشتدُّ في البرد، ومن ثمَّ يبرز كرم الممدوح بصورة أوضح.

ومن الناحية الفنية، نلاحظ اعتماد الخنساء على الألفاظ القصيرة القوية ذات الجرس الفخم، مثل: طويل، رفيع، كثير، وهي ألفاظ تتناسب مع معاني العظمة والهيبة.

كما يظهر أثر البيئة الصحراوية في تصويرها للوحشة والفراغ بعد فقد الأحبة، ومن ذلك قولها:

أرى الليلَ أطالَ كلَّ قصيرٍ

وليلُ المصابِ غيرُ قصيرِ[xxiv]

ترتبط هذه الصورة بالحياة الصحراوية التي يطول فيها الليل ويشتدُّ إحساس الإنسان بالوحدة والسكون. وقد جعلت الخنساء من الليل رمزًا نفسيًّا للحزن، فالشعور بالمصيبة يُحوّل الزمن القصير إلى زمنٍ طويل ثقيل.

وفي هذا التصوير تفاعلٌ واضح بين الطبيعة والانفعال النفسي؛ فالليل في ذاته ظاهرة طبيعية، لكنه في وجدان الشاعرة أصبح معادلًا للحزن والفراغ والوحدة. وهذا يدلُّ على أنَّ البيئة الصحراوية لم تؤثر في الصور الحسية فقط، بل أثرت أيضًا في رؤية الخنساء الشعورية للعالم.

خلاصة البحث

توصلت هذه الدراسة إلى أنَّ وصف الطبيعة يُمثِّل أحد أبرز الملامح الفنية في شعر الخنساء، وأنَّ عناصر الطبيعة لم ترد في شعرها لمجرد الزينة اللفظية أو التصوير الخارجي، وإنما جاءت مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بتجربتها النفسية والوجدانية، ولا سيما في مراثيها التي عبَّرت فيها عن حزنها العميق على أخويها صخر ومعاوية.

كما أظهرت الدراسة أنَّ الخنساء استطاعت أن تُحوِّل مظاهر الطبيعة، كالليل والنجوم، والجبال والنار، والشمس والدهر، والرياح والمطر، إلى رموزٍ فنية ذات دلالاتٍ نفسية وإنسانية، فجاءت صورها الشعرية صادقة العاطفة، قوية الإيحاء، ومعبرةً عن عمق تجربتها الشعورية. وقد كان للبيئة الصحراوية أثرٌ واضحٌ في تشكيل هذه الصور، إذ استمدت منها ألفاظها وأخيلتها، ثم أعادت توظيفها بما ينسجم مع رؤيتها الشعرية ومقاصدها الفنية.

وخلص البحث إلى أنَّ تميُّز الخنساء في وصف الطبيعة لا يكمن في كثرة الصور الطبيعية فحسب، بل في قدرتها على دمج الطبيعة بالوجدان الإنساني، حتى أصبحت عناصر الكون جزءًا من تجربتها الشعرية. وهذا ما أكسب شعرها قيمةً فنيةً عالية، وجعلها تحتل مكانةً بارزةً في تاريخ الأدب العربي، بوصفها واحدةً من أعظم شاعرات العربية وأكثرهن قدرةً على توظيف الطبيعة في التعبير عن المشاعر الإنسانية الخالدة.

التوصيات

في ضوء ما توصل إليه البحث من نتائج، يوصي الباحث بما يأتي:

1. الاهتمام بدراسة وصف الطبيعة في شعر الشاعرات العربيات في مختلف العصور؛ للكشف عن الخصائص الفنية والدلالية التي تميز تجاربهن الشعرية.
2. إجراء دراسات مقارنة بين وصف الطبيعة في شعر الخنساء وغيره من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام؛ لإبراز أوجه الاتفاق والاختلاف في توظيف العناصر الطبيعية.
3. تعزيز الدراسات التي تربط بين الصورة الشعرية والحالة النفسية؛ لما لذلك من أثر في فهم التجربة الوجدانية للشاعر وتحليل أبعادها الفنية.

4. الاهتمام بدراسة أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الصورة الشعرية في الأدب العربي القديم، وبيان انعكاسها على البناء الفني والدلالي للنصوص الشعرية.
5. تشجيع الدراسات البلاغية والنقدية التي تتناول توظيف الرموز الطبيعية في الشعر العربي، وإبراز قيمتها في بناء الصورة الفنية وإيصال المعنى.
6. العناية بتحقيق ودراسة دواوين الشاعرات العربيات دراسةً علميةً حديثة، وإبراز إسهاماتهن في إثراء الأدب العربي، ولا سيما في مجال التصوير الفني.

الهوامش.

[i] ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، ج8، ص94

[ii] ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1992م، ج4، ص1868-1869

[iii] الخنساء، ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمّان، 1988م، ص95.

[iv] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ص289.

[v] الخنساء، ديوان الخنساء، ص101.

[vi] الخنساء، ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمّان، 1988م، ص112.

[vii] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ص102.

[viii] الخنساء، ديوان الخنساء، ص103.

[ix] شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ص291.

[x] الخنساء، ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمّان، 1988م، ص95.

[xi] ابن رشيق، العمدة، ج2، ص34

[xii] الخنساء، ديوان الخنساء، ص96.

[xiii] الخنساء، ديوان الخنساء، ص74.

[xiv] طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص160.

[xv] الخنساء، ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمّان، 1988م، ص71.

[xvi] الخنساء، ديوان الخنساء، ص73.

[xvii] الأنعام: 6،

[xviii] شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص293.

[xix] الخنساء، ديوان الخنساء، ص118.

[xx] الرافعي، تاريخ آداب العرب، ج1، ص245.

[xxi] الخنساء، ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار عمّار، عمّان، 1988م، ص112.

[xxii] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، دار المعارف، ص292.

[xxiii] الخنساء، ديوان الخنساء، ص104.

[xxiv] الخنساء، ديوان الخنساء، ص121.

المصادروالمراجع

1. الخنساء، تماضر بنت عمرو السلمية، ديوان الخنساء، تحقيق: أنور أبو سويلم، دار عمار، عمّان، ط1، 1988م.
2. ابن سلام الجمحي، محمد بن سلام (ت 232هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.
3. أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ)، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت.
4. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت 463هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992م.
5. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.
6. ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق (ت 463هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
7. الجرجاني، عبد القاهر (ت 471هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
8. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط24.
9. طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة.
10. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت.
11. مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت.
12. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.
13. بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة.
14. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت.
15. أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
16. محمد مندور، في الأدب والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة.
17. عبد العزيز عتيق، في النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت.